

الفضاء المغربي ————— الظلال الشيعية في شعر ابن هانى الأندلسي

الظلال الشيعية في شعر ابن هانى الأندلسي

أ. هجيرة لعور

جامعة الحدائق . سكيكدة

مقدمة:

اكتسب شعر المدح في عهد الدولة الفاطمية طابعا خاصا ؛ حيث كانت له أبعادا أخرى من وصف للأحداث التاريخية التي تتصل بالمدوح ، و نقل صور واضحة لمعاركه و انتصاراته ، و لا سيما إن كان المداح هو ابن هانى الأندلسي . الذي يلقب بمنتبي المغرب العربي . و الممدوح هو المعز لدين الله (1) الذي يرى فيه الإمام المنزه الكامل الصفات الحامي للرعية ، وما يستحق منا العناء في ملامسة شعره هذا كونه أقرب إلى الصدق و النزاهة من عده مجرد شعر يتقرب به من ممدوحه بقصد التكسب ، أليس ما حمل ابن هانى على المجيء إلى بلاط الممدوح اضطهاده من طرف أهل الأندلس لما يحمله من أفكار فلسفية و شيعية ، تصل بالحاكم إلى مرتبة الإمام ؟ أليس ما حمله على المجيء إلى ممدوحه هو وازع ديني صرف ؟ ألم يكن البلاط المغربي الملاذ الوحيد له للتعبير عن أفكاره و معتقداته ؟ ألا يزال بعد يساورنا الشك في أن يكون مدحة هذا مجرد تكسب ؟ . لن نجد تعبيراً عن موقفنا هذا إزاء شعره أحسن من مما قاله الدكتور عمر بن قينة " و قد جمع بينهما الهوى المذهبي " (2) . فلم يتأخر المداح في تصوير صاحبه على أحسن و أبدع الصفات والهيئات التي يكون عليها الإمام ، و لم يبخل الممدوح عليه بتقريبه و رعايته .

و حين كان منطلق مدح ابن هانى للمعز بدين الله هو وازعه الديني المتمثل في معتقداته الشيعية (الإسماعيلية) التي تقول بإمامة الفاطميين بالمغرب

الفضاء المغربي ————— الظلال الشيعية في شعر ابن هاني الأندلسي
، فإن شعره قد اتسم بالكثير من الظلال الشيعية المستقاة من مبادئها الأساسية ،
ولهذا كان من الضروري الإطالة أولاً على أهم هذه المعتقدات ليتسنى لنا فهم شعره
من خلال سياقاتها .

التعريف بابن هاني الأندلسي

هو محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأندلسي ، ولد في قرية سكون
وهي قرية من قرى إشبيلية في الأندلس ، في سنة 320 هـ أو سنة 326 هـ
و يكنى بأبي الحسن أيضا . نشأ ابن هاني في تربة خصيبة بالعلم والأدب
، إذ كانت إشبيلية آنذاك في عصرها الذهبي ، تزخر بالثقافة و الحضارة ، و كان
أكثر تأدبه بدار العلم في قرطبة . و اتصل بصاحب إشبيلية و نال عنده حضوة .
غير أنه مال إلى اللهو و المجون ، و غال في قوله حتى اتهم بالزندقة و لاسيما
أنه كان من طلاب الفلسفة التي يتنكرها الناس ، معتقدا بإمامة الخلفاء الفاطميين
بالمغرب . فنقم عليه أهل المدينة . و أوعز إليه عاملها بالنزوح عنها ليهدأ ثأر القوم
فجاء شاعرنا المغرب ، و اتصل هناك بجوهر قائد المنصور الفاطمي ، فمدحه ،
و ساعده الحظ فقربه المعز بن منصور إليه ، و أغدق عليه العطايا ، فأقام عنده و
هو منعم و مكرم إلى أن ارتحل المعز إلى مصر بعد فتحها بقيادة جوهر . و توفي
سنة 362 هـ ، و عمرة لم يتجاوز الست و الثلاثين سنة و قيل اثنين
و أربعين (3) .

الإسماعيلية : (6)

إحدى فرق الشيعة ، و " الشيعة هم القائلون بإمامة علي ابن أبي طالب
وأولاده ، فقالوا بإمامته و خلافته و وصيته ، إما جليا أو خفيا . و اعتقدوا أن
الإمامة لا تخرج من أولاده فإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده ،
و قالوا : ليست الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة و ينتصب الإمام ، بل
هي قضية أصولية ، أي هي قضية أصل من أصول الدين ، فلا يجوز للرسول
عليه الصلاة و السلام إغفاله و إهماله و لا تفويضه إلى العامة و إرساله " (4) .
و تعد الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة و هي بدورها تنقسم إلى عدة فرق أخرى ؛

الفضاء المغاربي _____ الظلال الشيعية في شعر ابن هانئ الأندلسي
حيث أن " الإسماعيلية فرقة باطنية انتسبت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ،
ظاهر تشيع لآل البيت ، تشعبت فرقتها و امتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر و
من أهم فرقتها الإسماعيلية الفاطمية (العبيدية) . و التي قامت

الإسماعيلية الفاطمية (العبيدية) (5)

قامت الدولة الفاطمي على أساس الدعوة الشيعية في ظروف غامضة ،
واتشح الخلفاء الفاطميون بثوب الإمامة الدينية ، و ردوا نسبهم إلى علي بن أبي
طالب و فاطمة ابنة النبي عليه الصلاة و السلام ، و مساق إمامتهم إلى إسماعيل
بن جعفر الصادق ، و من ثم كانت تسميتهم بالإسماعيلية . و كانت هذه الإمامة
ملاذ السيادة الفاطمية و عمادها لدى الكافة ، و كان الخلفاء الفاطميون يحرصون
جد الحرص على صفة الإمامة و على توطيدها و نشر لوائها بمختلف الوسائل ؛ إذ
هي شعارهم الأسمى ، و عماد سلطانهم الروحي و معقد مطامعهم السياسية . و
الإسماعيلية

الفاطمية هي الحركة الأصلية و قد مرت بعدة أدوار : دور الستر ثم بداية
الظهور و أخيرا دور الظهور .

العقائد الإسماعيلية في الإمامة (6)

نلخص هذه العقائد بما يلي :

أ . ضرورة وجود الإمام إما ظاهرا و إما مستورا و ذلك لحفظ الشريعة ، وتدبير
مصالح
الأمة .

ب . لا يثبت قيام الإمام إلا بالنص ممن يكون قبله و بإذنه .

ج . الإمام سبب وجود المخلوقات في الدنيا و هو علتها ، فكأن العالم بأسره
كشخص واحد نفسه و روحه و هو الإمام

د . خلقة الإمام : الإمام هو من أكمل مخلوقات العالم جسدا و روحا و هو جامع

الفضاء المغربي ————— الظلال الشيعية في شعر ابن هانئ الأندلسي

للفضائل كلها و الخيرات و منبعها . فجسده برئ من كل عيب ، و روحه سالم من كل نقصان .

هـ . أوصاف الإمام : هي كل وصف اتصف به النبي . صلى الله عليه و سلم . من كونه أمين الله و هادي الخلق و وارث الأرض و شفيع الناس ، أي هو مشارك النبي في كل فضيلة إلا في الرسالة ، و النبي بسبب هذه الفضيلة أفضل من الإمام .

و . الإمام المعصوم : الإمام حائز لشرف العصمة مثل النبي لا يصدر منه خطأ ، و لا تبدو منه زلة ، لأنه ملهم من الله بأعظم درجات الإلهام ، و مؤيد منه بأكبر حدود التأييد ، و أنه مؤتمن على هداية الخلق بعد النبي .

ز . معرفة الإمام و ولايته : معرفة الإمام واجبة على جميع الناس ، وكذلك ولايته واجبة عليهم ، فنفوسهم لا تتجو من هذا إلا بمعرفته و ولايته .

ح . الإمام مظهر نور الله : نور الله لا يزال ينتقل من إمام إلى إمام ، فكل إمام في زمانه مظهره يتجلى الله به لخلقه .

ط . توحيد الإسماعيليين : الإسماعيليون ينزهون الباري تعالى من جميع النعوت و الصفات كالصانع و القادر و الفاعل إلى غير ذلك ، لأن إطلاقها يوجب الكثرة في ذاته عندهم .

الظلال الشيعية في شعر ابن هانئ :

اتسم شعر ابن هانئ الأندلسي . و بخاصة ما قيل بغرض مدح الوالي المغربي المعز لدين الله الفاطمي . بظلال شيعية تجسدت في العقائد الإسماعيلية التي أشعت على كافة فضاء قصائده . و بالخصوص ما يتعلق منها بالإمامة و التي تجلت واضحة تماما في قصائده التي مدح بها المعز لدين الله الفاطمي ، الذي يرى فيه إمام هذه الأمة و الآخذ بزمامها .

أليس هو القائل :

ما شئت، لا ما شاعت الأقدار، فاحكم، فأنت الواحد القهار(7)

الفضاء المغاربي _____ الظلال الشيعية في شعر ابن هانئ الأندلسي

وهذا بناء على عقيدة ابن هانئ الإسماعيلية ، التي تقضي بأن الإمام قائم مقام الأمر ، وجميع صفات البارئ واقعة عليه ، و لهذا فالمعز عنده هو الواحد وهو القادر و هو الحاكم و هو القهار ، و بالتالي له الأمر و النهي . ثم زاد شاعرنا أن المعز هو الرسول نفسه لاعتقاده أن أوصاف الإمام هي نفسها أوصاف الرسول (ص) ؛ أي أنه شاركه في كل فضيلة إلا الرسالة . كما رأينا من قبل . و لهذا قال في البيت الموالي :

و كأنما أنت النبي محمّد ، و كأنما أنصارك الأنصارُ (8)

فإن إمامه المعز هو نفسه الرسول (ص) و أنصاره هم أنصار المعز . وليس هذا فحسب بل حتى صفات الرسول (ص) هي صفاته ، فهو شفيع الناس مثله . كما جاء في قوله :

هذا الذي تُرجى النجاةُ بحبه ، و به يُحطُّ الإِصرُ و الأوزارُ (9)

هذا الذي تُجدي شفاعتهُ غداً حقاً ، و تخمُدُ أن تراه النارُ (10)

و يسمو شاعرنا بممدوحه إلى درجات عالية من القداسة تصل إلى جعله علة الدنيا التي خلقت لأجله ، فالإمام في معتقده سبب وجود المخلوقات في الدنيا و هو علتها ، و لهذا قال فيه :

هذا معدُّ ، و الخلائقُ كلُّها هذا المعزُّ متوجِّاً ، و الدينُ (11)

هذا ضميرُ النشأةِ الأولى، التي بدأ الإلهُ ، و غيَّبها المكنونُ (12)

من أجلِ هذا، فُدرَّ المقدورُ في أمِّ الكتاب، و كوّنَ التكوينُ (13)

و بدأ تلقى آدم، من ربِّه ، عَفواً، و فاءَ ليونسَ اليقطينُ (14)

فكأنما انحصر العالم كله في معدِّ و هو نفسه المعز المتوجِّ ، صاحب الدين ، و إن الدنيا بجميع المخلوقات التي فيها خلقت للإمام و هو علتها و دنياها و آخرتها ، فكما أن الجسم خلق للنفس فكذلك الدنيا خلقت للإمام و هو سببها و أن العالم بأسره كشخص واحد نفسه و روحه هو الإمام الذي من أجله قدر المقدور و كوّن التكوين .

الفضاء المغاربي _____ الظلال الشيعية في شعر ابن هانى الأندلسي

و ما يجسد المعنى نفسه قوله في قصيدة أخرى :

و طفقت أسأل عن أغرَّ مُحجَّلٍ فإذا الأنامُ جَبِلَةٌ دَهْمَاءُ (15)

حتى دُفِعْتُ إلى المعزِّ ، خَلِيفَةً فعلمتُ أَنَّ المَطْلَبَ الخُلَفَاءُ (16)

هو عِلَّةُ الدُّنْيَا، و من خُلِقَتْ لَهُ، و لِعِلَّةٍ ما كانتِ الأشياءُ (17)

فهاهو شاعرنا يسأل بين الناس جميعا عن رجل كريم عزيز واضح الكرم و الشرف ، حتى دُفِعَ إلى المعز ، فعرف بذلك أن الرجل الكريم ما يكون إلا الخليفة . و هو علة الدنيا

و الذي خُلِقَتْ له . و لم يكتف بهذا فحسب ، بل أحاطه بهالة من التقديس ، حيث جعل منبته طيب ، و أصله من نور لأنه . حسب معتقده . نور الله الذي لا يزال ينتقل من إمام إلى آخر ؛ و تجلى كل هذا في القطعة الشعرية التالية :

من صفو ماء الوحي، و هو مُجاجةٌ من حَوْضِهِ الينبوع، و هو شفاءٌ (18)

من أَيْكَةِ الفِرْدوس، حيثُ تَفَتَّقَتْ ثمراتها ، و تَقِيًّا الأفياءُ (19)

من شُعْلَةِ القَبَسِ، التي عُرِضَتْ على موسى، و قد حارتْ بِهِ الظَّلْماءُ (20)

من معدنِ التقديس، و هو سُلالةٌ من جَوْهَرِ المَلَكُوتِ، و هو ضِياءُ (21)

من حيثُ يُفْتَبَسُ النهارُ لمُبْصِرٍ و تُشَقُّ عن مكنونها الأنبياء (22)

و يستغرب شاعرنا من الذين لا يعرفون هذا الإمام الذي هو علة الدنيا ، لأن في معتقده معرفة الإمام واجبة على جميع الناس و كذلك و لآيته واجبة عليهم ، و لا نجاة لهم إلا بمعرفته و ولايته ؛ حيث يقول شاعرنا :

قد جالَّتِ الأوهامُ فيكَ، فدَقَّتِ الأُفكارُ عنكَ، فجلَّتِ الآلاءُ (23)

و تجمَعَتْ فيكَ القلوبُ على الرضا؛ و تشيَعَتْ في حُبِّكَ الأهواءُ (24)

دانُوا بأنَّ مَدِيحَهُمُ لَكَ طاعةٌ ، فَرَضُوا ، فليسَ لَهُمُ عليكِ جَزاءُ (25)

فهو يقول لممدوحه ، قد طافت أوهام الناس في شأنك و لكن عقولهم

قصرت عن معرفة حقيقتك ، ذلك أن نعمك يستحيل أن تُحاطَ ، و قلوبُ الناسِ كُلِّها متفقة على رضاك ، و كلهم صاروا شيعَةً في حُبِّكَ ، سواء منهم الأصدقاء أم

الفضاء المغاربي _____ الظلال الشيعية في شعر ابن هانئ الأندلسي

الأعداء . و أن الناس يعتقدون أن مدهم لك مفروض عليهم ، و ليس عليك أن تجازيهم على ذلك ، على غرار أولئك الشعراء الذين يمدحون غيرك بمقابل يرجونه . و هنا يقرر شاعرنا ابن هانئ فكرة الولاء لإمامه من خلال مدحه المفروض عليه دون مقابل ، إضافة إلى أنه يدعو له بالسلامة و البقاء دون سائر الخلق ، و يفديه بشهر الصيام و القيام لأنه مبارك تنزل فيه الوحي على الرسول (ص) و لآل رسول الله الحق بالإكرام و الثناء لنزول الوحي في واحد فيهم ، بل و أكثر من هذا ، فهو يفديه ببقية الشهر أيضا ، و يتجلى كل هذا في قوله :

فاسلَمَ إِذَا رَأَى الْبَرِيَّةَ حَادِثٌ وَ اخْلَدُ إِذَا عَمَّ النُّفُوسَ فَنَاءُ(26)

يَفْدِيكَ شَهْرُ صِيَامِنَا وَ قِيَامِنَا ثُمَّ الشُّهُورُ لَهُ بِذَاكَ فِدَاءُ(27)

فِيهِ تَنْزَلُ كُلُّ وَحْيٍ مُنَزَّلٍ فَلَأَهْلَ بَيْتِ الْوَحْيِ فِيهِ تَنَاءُ(28)

هذا ، ويكمن تعظيم ابن هانئ لإمامه في تصوير خَلْقَتِهِ ، حيث أن الإمام في معتقده من أكمل مخلوقات العالم جسدا و روحا و هو جامع للفضائل كلها ، فجسده برئ من كل عيب و روحه سالمة من كل نقصان، و يتجلى ذلك في قوله :

ضْرَابُ هَامِ الرُّومِ، مُنْتَقِمًا، وَفِي أَعْنَاقِهِمْ مِنْ جُودِهِ أَعْبَاءُ(29)

تَجْرِي أَيْدِيهِ، الَّتِي أَوْلَاهُمْ ، فَكَأَنَّهَا بَيْنَ الدِّمَاءِ دِمَاءُ(30)

لَوْلَا أَنْبِعَاثُ السَّيْفِ، وَهُوَ مُسَلِّطٌ فِي قَتْلِهِمْ، قَتَلْتَهُمُ النُّعْمَاءُ(31)

كَانَتْ مُلُوكُ الْأَعْجَمِينَ أَعْرَةً فَأَذَلَّهَا ذُو الْعِرَّةِ الْأَبَاءُ(32)

فألحق الشاعر هنا كل صفة هي حميدة بممدوحه و قرنها بصفات أعدائه ليميزه عنهم . فهو من يضرب أعناق الروم و ينتقم منهم مع أنهم كانوا من الذين أنعم عليهم بجوده قبل ذلك، فلما كفروا بنعمه انتقم منهم بضرب رؤوسهم ، فسالت دماؤهم و كأنها تلك النعم التي منَّ بها عليهم ، و حتى ولو لم يجد سيفه لقتاله ، لكانت نعمته كافية لقتلهم ، كما أنه كسر شموخ الروم لأنه يأبى أن يُظلم أو يُذلَّ ، فأذلهم لأنه أقوى منهم و أقدر .

الفضاء المغربي _____ الظلال الشيعية في شعر ابن هانئ الأندلسي

الهوامش:

- (1) المعز بدين الله ، معدّ و كنيته أبو تميم ، و لقبه المعز لدين الله ، و هو الرابع من الخلفاء الفاطميين الذين ظهر جدهم الأكبر عبد الله المهدي بالمغرب سنة 296 ، ولد المعز بالمهدية من أعمال تونس في اليوم الحادي عشر من رمضان سنة 317 ، و هو أول الخلفاء الفاطميين بمصر بعد فتحها و إليه تنسب القاهرة المغربية و كان عالما فاضلا جوادا حسن السيرة ، أقيمت له الدعوة بالمغرب كله و ديار مصر و الشام و الحرمين و بعض أعمال العراق .
- (2) عمر بن قينة، أدب المغرب العربي قديما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 65
- (3) ديوان ابن هانئ الأندلسي ، شرح أنطوان نعيم ، ط 1 ، دار الجيل بيروت ، 1416 هـ / 1996 م ، ص: 11 ، 12 .
- (4) صبري خدمتلي ، العقيدة و الفرق الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1994 ، ص: 62 .
- (5) طريقة إلى معرفة الحقيقة ، (google.com) .
- (6) ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص: 26 و 27 و 28 .
- (7) الديوان ، ص: 101 .
- (8) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- (9) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- (10) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- (11)(12)(13)(14) المرجع نفسه ، ص: 205 و 206 .
- (15)(16)(17) المرجع نفسه ، ص: 33 .
- (19)(20)(21)(22) المرجع نفسه ، ص: 33 و 34 .
- (23)(24)(25) المرجع نفسه ، ص: 39 .
- (26)(27)(28) المرجع نفسه ، ص: 40 .
- (29)(30)(31)(32) المرجع نفسه ، ص: 35 .